

الإربعاء 13-02-2008

166- التراث الشعبي حضور في الوعي؟ أم ديكور للحكي؟

كيف تجمّع التراث الشعبي عبر التاريخ، وكيف يشكّل الوعي الشعبي حالا؟

الثقافة بمعنى النسيج الضام لوعي الناس المشترك، هي تنبع من الناس، مما هم، لتصب فيهم، هي عملية حركية مستمرة أكثر منها تسجيل معرفي معلوماتي. والتراث الشعبي هو ذخيرة الأمة، وما تبقى منه وما زال يسرى فينا، حتى دون أن ندري، هو ما يندرج تحت ما يسمى الآن بالتوارث الثقافي في مقابل الوراثة البيولوجية (الميمات في مقابل الجينات).

التراث الشعبي المستعاد، غير الوعي الشعبي المعاش، رغم ارتباطهما الوثيق.

العلاقة بالتراث الشعبي لا ينبغي أن تقتصر على تكرار أو جمع الأمثلة العامة، أو على تحديث الأغاني الشعبية، أو على إحياء الرقص الشعبي، وإنما ينبغي أن تمتد إلى تعميق واستلهام وتنمية ما يثبت صلاحيته من العادات والتقاليد والطقوس المنتقلة من جيل إلى جيل. ليس للتراث الشعبي فاعلية حقيقية (سلبية أو إيجابية) إلا إذا أصبح وعيا شعبيا خاصا وعاما.

إذا لم ننتبه إلى حقيقة تحويل التراث الشعبي إلى وعى شعبي (يتجلى في الفرد مثلما يتجلى في الجماعة) فإننا نكون قد قطعنا التواصل مع امتدادنا، نكون قد نزعنا الجذر من تربته ونحن نتصور أننا نقوم بتصويره للذكرى أو للزينة، فيضمر وتموت الشجرة.

إن الاكتفاء باستعمال التراث في الاحتفالات، والشعارات، والزينة اللفظية، والنكت السريعة، والحكمة الطائفة، هو إهانة للأصل، هو بمثابة من يستعمل صور أجداده للزينة، يعلقها في حجرات الاستقبال بدلا من أن يستلهم حكمتهم ويحمل مسؤولية تحقيق آمالهم فينا، وفي البشر.

إن ما أعنيه بتعبير "الوعي الشعبي" (وهو غير التراث الشعبي) هو إشارة إلى ممارسات تجرى حاليا، وهي ممارسات إيجابية، وسلبية. الوعي الشعبي هو التعبير المباشر عن ماهية

الناس في لحظة بذاتها، ومن ثم فإننا حين نريد أن نتعرف على أنفسنا من امتدادا في جذورنا التي نحن نتاجها الآن في تربة مختلفة، فإننا بذلك نعد لامتناهنا الأصيل في آفاق المستقبل، علينا أن نفحص الفروع والثمار الظاهرة، ولا نكتفى بالخفر حول الجذور، إن ما يميزنا الآن، ليس جذورنا المختلفة تحت الأرض، وإنما نتاج هذه الجذور من فروع جافة أو ظليلة، من أواق متساقطة أو زاهية، من كرم شهى أو حصرم حامض.

من يريد أن يعيد تشكيل وعى ناسه "هنا والآن"، وفي نفس الوقت لا يريد أن يتشكل من خلال قيم مستوردة أو مناهج مغتربة، عليه أن يلم بماهية ناسه الآن، بأن يبحث ابتداء عن المنهج المناسب، للنظر في تراث شعبه ونفسه، ومن ثم في وعى شعبه ونفسه، لينطلق منه في رحاب الدنيا الواسعة بالناس من كل مكان، الذين يمثلون شمس الدنيا، وهواء الحياة الزاخرة .

خطر أى خطر أن نعتمد على ملء الاستثمارات المترجمة المليئة بالأسئلة المغلقة النهاية "نعم-لا"، لتتعرف من خلالها على "من نكون"، "من نحن"، . هذا استسهال قد تضللنا نتائجه، كثير من الأبحاث التي تجرى في هذا المجال بطريقة أكاديمية مغلقة تبعدنا عن وعينا الشعبي ونحن نتصور العكس.

إن التعرف على وعى ناسنا "الآن" لا يأتي من خلال ما يسمونه قياسات الرأي العام، **ولا هو يعتمد على نتائج الانتخابات التي تجرى تحت مسمى الديمقراطية بأساليب أصبحت من الالتواء والتضليل والانتقائية بحيث أهدرت مصداقية الديمقراطية والحرية جميعاً،** إننا نتعرف على الوعي من خلال النظر في لغته الجديدة، الدالة والعايئة معاً، من أغنيته الهابطة والراقية على حد سواء، إن تعال العلماء والباحثين على نبض الشارع، وقياسه بمقاييس المكاتب الأكاديمية قد يرسم لنا صورة لا تمثلنا: إما شائهة أو مزورة.

في مداخلة مزعجة عن اللغة والثقافة العلمية، عقدها المجلس الأعلى للثقافة في أبريل 2005 **"حركة اللغة: من الشعر إلى الشارع"**، قدمت ورقى عن حركة اللغة بين الشعر والشارع، دافعت فيها عن اللغة الشبابية باعتبارها تحتوى وعى الشباب بدلالات متجددة، علينا أن ندرسها، ولا نسارع بشجبها من موقف فوقى سلطوى جامد.

إن تقديس العلم منفصلا عن الناس هو من مخاطر الانغلاق المعقلن.

المعلومات التي تصلنا موجزة مركزة من مراكز الأبحاث، أو عبر وسائل الإعلام، بل في مناهج التعليم، لا تصبح لها قيمة حقيقية فاعلة إلا إذا تعمقنا نتائجها حالة كونها تتفاعل مع مصادر أخرى للمعارف مثل التقاليد، والدين الصحيح، والدين الشعبي، والحدس الشعبي الصادق والكاذب معاً. وكل ما جرى فعلاً من الناس بين الناس على أرض الواقع.

المطلوب ونحن نتكلم عن العلم وعصر العلم وضرورة العلم ألا نستسلم لما يحتزل وجودنا ننفذ برامج مغلقة ليست من صنعنا، نبحث في مشاكل لا تلح علينا، وليس لها الأولوية التي عند غيرنا،

نحن لا نقلل من قيمة العلم، لكننا نذكر بأن العلم ومعلوماته ليست إلا أحد مصادر المعرفة.

وبالتالي لا ينبغي أن يكون هو المقياس والمرجع الوحيد لكل المنظومات المعرفية الأخرى. إن العلم لا يقيس إلا نفسه، لكنه يتفاعل مع كل مصادر المعرفة بكل لغاتها ليصيغ الوعي المعرفي الأشمل بما يميز الثقافات المختلفة من واقع جذورها الغائرة في التاريخ وثقارتها المَهْجَنَة بالواقع الجارى.

زاد الاهتمام هذه الأيام بإعادة النظر في مناهج العلوم الإنسانية لتضع في اعتبارها احترام الوعي الشعبى كفضهر للمعرفة يمكن أن يخرج بنتائج وتعقبات لها مصداقيتها في ذاتها، وأيضاً ليعيد للمعلومات الحكائية "قيمتها واحترامها.

إن الناس عامة "تحكى" معرفة حقيقية، وما يمارسونه هو إضافة هامة وليس مجرد تنفيذ مبرمج.

إن وعى الناس حاضرا الآن هو مصهر للمعرفة وليس إناء للغرف.

علينا أن نحترم المعرفة المُمارَسَة (دون تقديس) وألا نقيسها بغير مقاييسها.

إن ممارسات الناس في المناسبات، وطقوسهم في المعاملات **(يومية 2008-1-22 طقوس "السُّبُوغ"، وجدلية الانفصال/الاتصال)**، وتغير لغتهم وتحديث أغانيهم، وتطوير رقصهم، كل ذلك يحمل من الدلالات والمعارف ما يمكن أن يلهمنا مناهج تكشف لنا عن هويتنا ونحن نعيد صياغتها، فنحى أنفسنا من الانسياق على مسارات غامضة، بمناهج مختزلة: بعضها مشبوه المصدر، والآخر غير صالح للاستعمال الآدمى إلا في موطنه الأصلي، إن صلح أصلا.

استشهاد محدود

نقرأ معاً مقطعين من مؤالين مختلفين،

الأول: ينتقد الاعتمادية السلبية إذا كانت هى السبب الأول والأخير لعقد علاقة (صداقة/حب.. إلخ) مع الآخر، لأن هذا الآخر لو فعل نفس الشئ بالضبط، وهذا حق، فلن نتكافل معاً أبداً، إننا نحمل همّ بعضنا البعض بالتبادل والتكافل، وليس بالطفيلية وسعار الاحتياج، وإلا.....

يقول الموال:

صاحبت صاحبٍ وقلت في يومٍ يشيل جملي
 جاب حملة التقييل وحطه على جملي
 لفيت جميع البلاد على صاحب يشيل حملي
 وتعبت وشقيت، لكن بدون فايذة
 واللى اشتكيله يقوئ: وانا مين يشيل حملي

الثاني: موال آخر ناقد يحاول أن يوقف لعبة التزايد للتزايد، والامتلاء بعد الحاجة، وفصل الأداة عن أدائها، والاستهلاك الكمّي للاستهلاك، وبرغم نهايته التشاؤمية إلى أنها أقرب إلى واقع ما آل إليه مجتمعنا الحالي، وما يستثيره في عامة الناس من غلٍ مشروع وغير مشروع.

يقول الموال:

أصل الخسيس لو شعب زى السباخ لوزاد
 بيتلف الأرض ولا بتجيش زرعته
 والملح حسن الطعام ... وبيفسده لوزاد
وشجره ما فيهاش ثمر يا سوء زرعته
عمل مافهش أمل يبقى بلاش منه
وخلف ما فيهش نفع، غور بلاش منه
 في الألف واحد ملان بيكبّ عالفاضي
والغل مجره اتسع أصبح مفيش له حد

أرسل تعليقا

TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com
http://www.rakhawy.org/a_site/everyday/sendcomment/index.html
 The Man & Evolution FORUM Web Site
<http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/>
 All Interventions: The Man & Evolution FORUM Messages
<http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/messages/1>
 Pr. Yahia Rakhawy Web Site
http://www.rakhawy.org/a_site